الاستشراق والمستشرقون" المفاهيم والأبعاد"

الدكتور: عبد الرزاق بن دحمان
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر – بسكرة

لموضوع الإستشراق قيمة معرفية واسعة الحضور والتداول في مجال الدراسات النقدية والفكرية، فقد شهد القرن العشرين حوارا ثقافيا وفكريا بين الشرق والغرب. حوار تكونت مرجعياته منذ التقاء الفكر الإسلامي العربي بالفكر الغربي المسيحي، وهذا منذ بداية الحملات الصليبية، والتي تعد بداية الصراع بين الشرق والغرب، وفي الحقيقة أن مستوى الحوار بين الحضارتين لم يكن وليد الحروب أو حملات التبشير بقدر ما كان محاولة الغرب لاحتواء معرفة الشرق قصد الوصول إليه وهذا ما إن شعر الغرب بقوة النفوذ الفكري والعلمي عند العرب والمسلمين، ومن هنا اتبعت أوروبا خطابات معرفية تعيد تأسيس الفكر الغربي الحديث وهذا ما نلحظه في مرحلة ما بعد الكولونيالية وبعد سيطرت النفوذ الاستعماري على كافة المواقع الشرقية ومن هذا المنطق توسعت فكرة الإنشراق والتي لم تعد دراسة حول الشرق من الجوانب العلمية والأدبية والجغرافية والسياسية فقط بل أصبحت فلسفة الإستشراق خطابا واسع بدلالة القصد منه إدخال بناء معرفي متميز ضمن ذهنيات غربية تجعل من الآخر معبرا أو وسيلة لخلق مركزية فكرية تمتلك سلطة الإدارة والتحكم وهذا ما جعل المفكر الفلسطيني الأستاذ" ادوارد سعيد" يعيد طرح منظومة الاستشراق طرحا معاصرا يفيد كسر مقولة الغرب ونظرته إلى الشرق

يعرف الدكتور" ادوارد سعيد" الاستشراق بقوله" إنه أسلوب في التفكير مبني على تمييز متعلق بوجود معرفة بين الشرق والغرب" إنه المجال المعرفي أو العلم الذي يتوصل به إلى معرفة الشرق بصورة منتظمة كموضوع للتعلم والاكتشاف والتطبيق وعليه يتحول الاستشراق وعن طريق قنوات التفكير المعاصر إلى بنية معرفية تجسد مستوى التفكير الغربي،

فهو في رأي الأستاذ" ادوارد سعيد" ليس مجرد موضوع سياسي أو حقل بحثي ينعكس سلبا باختلاف الثقافات والدراسات والمؤسسات وليس أيضا تكديس لمجموعة كبيرة من النصوص حول الشرق، انه توزيع جغرافي لمستوى الوعي قصد استظهار مواطن التعلم وترحيلها إلى مفاهيم وأطروحات غربية.

1- المرجع والمفهوم: لقد اختلفت اتجاهات وانشغالات المستشرقين.... فقد اهتم بالشرق قديما وحديثا- الرحالة والمبشرون والضباط ورجال الإدارة الاستعمارية واللغويون واللهوتيون وعلماء الآثار والأنتربولوجيون ومؤرخو الحضارات والتربويون الرومانسيون ورجال المخابرات والسياسيون والمهتمون بالشرق كافة ....[1] وبهذا الطرح يمكن لنا الوقوف عند مفهومين أو اتجاهين في تعريف فكرة الاستشراف: مفهوم عربي ومفهوم غربي.

تشكل الوعي العربي بمسألة" الاستشراق" عبر مراحل تاريخية أظهر فيها العلماء العرب مواقف فكرية تختلف باختلاف المرجعيات الثقافية والإيديولوجية لكل مفكر وباحث.

يرى الباحث والأستاذ" أحمد حسن الزيات" أن الاستشراق هو" دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وقيمه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره ولكنه في العصور الوسطى كان يقصد به دراسة العبرية.

إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مضمرا بما تشعه منابر بغداد و القاهرة من أضواء المدينة والعلم كان العرب من بحره الى محيطه غارقا في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجامحة"[2]

يقول الدكتور" احمد الشرباصي في كتابه" التصوف عند المستشرقين"« إن المستشرقين قدم من اوروبا نسبوا أنفسهم إلى العلم والبحث وشغلوها في اغلب الأحيان بالبحث في التاريخ والدين والاجتماع ولكل منهم لفتة الأصلية التي وضع لبانها من أمه وأبيه ومجتمعه وبيئته فصارت له اللغة الأم كما يعبرون، فهو يغار عليها ويتأثر بها، ولكنه مع ذلك تعلم اللغة العربية بجوار لغته الأصلية ليدرس حضارة الشرق وعلومه وآدابه»[3]

تكاد تكون هذه المفاهيم والتعريفات قاسما مشتركا بين الكثير من المفكرين والنقاد وخاصة من الذين ينتمون إلى الجيل الأول من نقادنا كأحمد أمين- محمد عبده- جمال الدين الأفغاني، وصولا إلى: مالك بن نبي- حسن حبنكة وعبد الرحمان بديري

ما يمكن قراءته في هذا المقام أن فكرة الاستشراف وأبعاده المعرفية تشكلت من وعي العرب لمستوى الخطاب الغربي في بداية نشأته وهذا ضمن ثنائية الشرق والغرب: باستثناء أفكار الدكتور" ادوارد لسعيد" في طرحه الفلسفي لمسألة الاستشراف، بمعنى أن فكرة المستشرقين ارتبطت منذ ظهورها بالمعنى الديني حين اهتم المستشرقون بدراسة الجوانب الحساسة في تاريخ المسلمين فضلا عن اهتمامهم بسيرة الرسول (ص) وحياة الصحابة وتراجم المشاهير والإعلام.

أما عن تعريف الغرب للإستشراق فإننا نعثر على مجموعة من الآراء والأفكار تنطلق من مرجعيات غربية متباينة وعله كانت كلمة" إستشراق" كلمة غير واضحة المعالم في ذهنية بعض المفكرين الغربيين، فهذا المستشرق الفرنسي" اندري ميكال" 1929 يرفض هذه التسمية إذ يقول" لست مستشرقا إهتمامي يدور حول اللغة والأدب العربيين وبصف خاصة الكلاسيكي اي حتى القرن التاسع عشر فأنا متخصص في اللغة والأدب العربيين" في النهاية إذا شئت فأنا أفضل أن يطلقوا على لفظ مستغرب أكثر من مستشرق"[3]... وبكلمة نقول إن دلالة المصطلح تحمل مفهوما ضمنيا يقوم على" دراسة الغربيين لقضايا الشرق لغرض التعرف على المعالم الشرقية من خلال الدراسات اللغوية والدينية والتاريخية والاجتماعية والسياسية والعادات والتقاليد"[4]

يقول الدكتور عمر فروخ "إن أوائل المستشرقين منذ القرن التاسع عشر حاول مفكرو أوروبا تهذيب هذا المصطلح ومنحه قدرا من الحمولة المنطقية والموضوعية وهذا ما نجده عند المستشرق الفرنسي جاك بيرك(1915-2004) وهذا من الذين ترجموا القران الكريم الى اللغة العربية، وعند المستشرق الاسباني بيدرو مارتينيت.

– إذن نقول إن مسألة الاستشراق انبعثت عبر المسار التاريخي لعد مدلولات ومعاني تختلف باختلاف المنظور الثقافي لكل مدرسة او اتجاه وهذا ما أكدته المستشرقة زيغريد هونكه في كتابها،" شمس العرب تسطع على الغرب" اذ لا تقول" من المستشرقين نفر قليل جدا اقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها وهؤلاء كانوا اقل خطأ في فهم الإسلام وتراثه. لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف فجاءت أبحاثهم اقرب إلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين"[6]

الاستشراق وتأويل المرجعيات:

ما زال الغرب بصر على شروق الشمس من الغرب وتصدراته المركزية لثقافة الشرق. إنها مركزية العالم الغربي حين أراد امتداد المرجعيات المعرفية>> إذ شكلت الثقافة الغربية بكل أشكالها ممارسة منهجية فيكشف الأخر الشرقي الذي كان بمثابة مجهولا فكريا وعقائديا يجب تطويعه وإخضاعه في منظومة الخطاب الاستشراقي الذي ينتج ويعيد إنتاج الأخر على أساس إيديولوجي وروح العصر التي ينطلق منها المستشرق والمفكر والمبدع الغربي في تكوين عوالم نصوصه السردية[7] ومن هذا التصور لم تعد ثنائية الشرق والغرب مشروعا معرفيا تحدده فكرة الاستشراق بقدر ما أصبح مفهوم الاستشراق محملا بخطابات سياسية هدفها إيجاد مواطن مجهولة تمنح الغرب شيئا من النفوذ والهيمنة، ومن ثم تكوين عقلية الفرد الغربي ومن ضمنها عقلية المستشرقين في الموروث الثقافي الذي تشكلت منه أوصافا ساعدت على تكوين صورة جاهزة ومسبقة في المعرفة القبلية للمستشرق عند زيارته للشرق لإسقاطها عليه وهي البربري.

والمتوحش والمتخلف.... إلا أن هذه النظرية سرعان ما تلاشت>> نظرا لما تعرض له الغرب من هزائم أمام حركات التحرر في العالم الثالث.. التي عبرت عن تمايزها الثقافي والحضاري عن الغرب مما دفع بهؤلاء المفكرين إلى إعادة النظر في العقل الوضعي الانواري وانتقدوا سلطته المعرفية القائمة على الايدولوجية الواحدية والمركزية الأوروبية الغربية التي عملت دائما على إقصاء الأخر وإلغاء الثقافات الأخرى من اجل إثبات ذاتها طبقا لإرادة القوة والسلطة التي تمارسها اي ثقافة من اجل الهيمنة والسيطرة المعرفية والايديولوجية السياسية والحضارية[8] وبهذا المفهوم لم تعد أفكار المستشرق الفرنسي' ارنست رينان' ذات قيمة او معنى في مرحلة ما بعد الكولونيالية في رأي ان الفلسفة الإسلامية ليست فلسفة عقلانية تنويرية وهذا بنقده لفلسفة الفيلسوف الإسلامي(ابن رشد)...

في كثير من الحالات المعرفية أنتج الاستشراق المعاصر خطابات نقدية جعلت من الإنسان الغربي يغير مراجعة ذاته مما يجدر بنا القول(إن ما يجري في الفلسفة الغربية منذ الستينات الى اليوم هو نقد العقل الغربي بنقد استشراقه اواليته التي أفرزت الرؤية الاستشراقية التي ما والت تنهل منها الخطابات السياسية والإعلامية الغربية والعربية على السواء خطابات الدعوة إلى الهيمنة وتكريس الوضع القائم[9]

يقول الأستاذ الدكتور' منير بهادي' متحدثا عن تشكيل منظومة الاستشراق في العصر الحديث زمن المد الكلونيالي وموجة الاستعمار((.... لكنه استشراق متميز عن الاستشراق الذي رافق الاستعمار في القرن التاسع عشر لأنه اهتم بالترجمة والنقل وجمع المعلومات عن الشرق العربي الإسلامي، ثقافته محاولا احتواء عقلانيته وترويضها استجابة لبنية الثقافة الغربية لهذا يمكن تسمية المحاولات الأولى في عملية الاحتواء هذه بالاستشراق الكلاسيكي، أما المحاولات الثانية التي شكلت صورة نمطية عن الثقافة العربية الإسلامية الشرقية في الوعي التاريخي والثقافة الغربية يحركها فيذلك هاجس الهيمنة والسيطرة على العالم من اجل عولمة الثقافة الغربية فقد اصطلح على تسميته بالاسترتاق الوضعي لتشكله وتكونه في بنية الخطاب الفلسفي الوضعي الذي شكل الوعي التاريخي الغربي الحديث والمعاصر..[10] تكشف هذه المقولة عن جوهر عملية الاستشراق والذي ظهر كتفاعلية لتمركز الذات الأوربية وهذا يجعل الشرق إطارا وموضوعا قابل للذوبان والانصهار، إلى أن أصبح الشرق مجالا واسعا لتطبيق مفاهيم قيمه وموروثه وهذا حسب مرجعية الغرب المستندة إلى فكر وثقافة القرون الوسطى وهذا ما نلمحه في ثنايات لكود لفي شراوش) مؤسس الانتربولوجية الحديثة فقد طرح هذا العالم في كتابه" مدارات حديثة" تعارض مبادئ الإسلام العامة مع الفكر المسيحي والبوذي وكذا نقده للقيم الإسلامية كونها غير متسامحة. لهذا كرست السلطة الغربية معايير واليات تقاس بها الثقافات والشعوب وعلى مبدأ الاختلاف نمت في الفكر الغربي طروحات معرفية تمجد تمدن الغرب ووحشية الشرق إلى أن أصبح الشرق متجاورا لشرقيته، شرق تحكمه الأساطير والخرافات، ومن شدة هيمنة الفكر الاستشراقي استطاع الخطاب الغربي الأوروبي من خلق نموذج شرقي يشين خطاب الاستشراق وهنا في مجال الكتابة الفلسفية والأدبية" فلقد اثر الفكر ومنهجيته على نتاجات وأطروحات العديد من المفكرين والباحثين العرب في العصر الحديث، اذ ترتب على الشرقي شرقنة ذاته وفق نتاجات عقلية الاستشراق ومنظومته وظهرت تجليات الشرنقة في كتابات مفكري ما يسمى" عصر النهضة" أو" التنوير العربي" بشكل واضح ثم لاحقا في أدبيات العديد من آليات الفكرية التي ظهرت على الساحة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، كما فعلت شرنقة الذات فعلها في العديد من الأعمال الفنية والأدبية سواء في السينماء او الرواية من خلال التركيز على الصور الغرائبية للشرق التي تستهوي أو تستجدي الذوق الغربي، والتي ربما يجد فيها الغربي جزاه المفقود الأخر او صورة

الأخر التي رسمها في مخيلته وعليه تتأسس شرقنة الذات على ميتافيزيقا التناهي مع ذات الآخر المتفوق واللحاق بركبه على حساب جلد الذات الشرقية، وتعنيفها[11] وخير مثال على ذلك أفكار الدكتور" طه حسين" في دراسته للأدب العربي كما في كتابه" في الشعر الجاهلي" او" قادة الفكر""العقل العربي في تصور" طه حسين" هو عقلي ديني الماهية" ينظر كتاب: قادة الفكر والشرق في نظره هو منبع النبوءات والإلهامات بينما الغرب هو منبع العلم او الفلسفة

وبكلمة نود القول أن الفلسفة الاستشراق هي فلسفة نمت وتطورت عبر مسارات تاريخية طويلة وفي كل معبر تاريخي تأخذ الكلمة أبعادا ودلالات معرفية تفرضها ثقافة العصر وإيديولوجية التفكير.

المجلات والهوامش

1/ رضوان السيد مجلة الفكر العربي ثقافة الاستشراق، س 5 1983

2/ احمد حسن الزيات تاريخ الادب العربي: دار النهضة القاهرة: ص 512

3/ احمد الشيخ من نقد الاستشراق الى نقد الاستغراب المركز العربي للدراسات الغربية ط1 1999– القاهرة ص 8881

4/ ينظر هذه الفكرة: محمود خليف الحياني: الاستشراق والاستغراب دار غيداء– الأردن ط1 2013 ص 15

5/ ينظر عمر فروخ: الاستشراق سلسلة كتب الثقافة المقارنة بغداد 1986. ص 45

6/ زيفريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ترجمة فؤاد حسين علي. الجزائر ط1 1986 من المقدمة (ا.ب)

7/ محمود خليف الحياني: الاستشراق والاستغراب دار غيداء الأردن ص 43

8/ منير بهادي: الاستشراق والعولمة الثقافية دار غيداء للنشر وهران ط 2002

9/ المرجع نفسه ص 57 ص 33

10/ نفس المرجع ص35

11/ عمر كوش: اقلمة المفاهيم المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط1 2005 ص 147